التحول العالمي والجمود العربي

الحياة ٢٧/٤/١٩٩٠

غسان سلامة*

■ من اصدقائنا الكثر، المتخوفين من التغيرات الدولية الحاصلة امام اعيننا، من لا يصدق ما يرى بعينيه الاثنتين. لا يصدق لأنه عاجز عن التامل في خطورة ما يحصل من حولنا، وعاجز عن التاقلم معه. لذا فهو ينكفئ الى نوع من السلفية الفكرية، المتمسكة بالماضي القريب، وكأنه مستمر أبدا. وهو يطلق بالتالي تنبؤات مفادها العام، التشكيك في صحة هذه التحولات، وكأنها غير حاصلة ابدا، او كأنها لو حصلت، قصيرة العمر غير مستقرة.

نسمع مثلا ان غورباتشوف سيطاح به قريبا، وان البيريسترويكا ستتوقف، بل ستدفن في احد متاحف موسكو. ونسمع ان الولايات المتحدة ستعيد سيطرتها بالقوة على اوروبا واليابان. ونسمع ان الدول الاوروبية ستعجز عن التوحد وستعود للنزاعات الدامية بينها، وان الماركسية ستنتعش بصورة مفاجئة، وان التقدم التكنولوجي سيبقى غير ذي اثر على توجهات الافراد والجماعات، وان سباق التسلح بين الشرق والغرب سيعود الى ما كان عليه، وان الحرب الباردة لم تنته بل هي آخذة استراحة مؤقتة ريثما تعود الى ما كانت عليه. وعندما تواجه صاحب هذا النوع من التنبؤات بالحجج والبراهين المعاكسة، ينقض عليك صارخاً: مالي ومالهم! وما تاثير ما يحصل في برلين أو طوكيو، او في براغ او ماناغوا، عليّ أنا المواطن المسكين في الموصل او في وهران، في حمص او في طنطا؟

لكن الواقع ليس طبعا كذلك. فالتحول الحاصل حاليا في النظام الدولي عميق، خطير، متسارع واثره علينا واسع، متشعب وفي الاجمال سلبي. لأن التطورات الحاصلة هي في الاساس نتاج ارادة على التغيير، نلمسها لدى قادة العالم، ولا نرى لها اثرا واسعا في حكوماتنا. فالبيريسترويكا هي قرار حازم بنقل الاتحاد السوفياتي من التخلف التكنولوجي والاقتصادي المدني، ومن الميزانيات العسكرية الثقيلة الحمل الى عالم السوق والتبادل الحر والانتاجية الصناعية المرتفعة. والتوحد الاوروبي هو نتاج قرار آخر بجمع قدرات دزينة من الدول المتنافسة والمتحاربة خلال قرون طويلة من حال الشرذمة الى حال التكامل الاقتصادي، وبالتالي الى مستوى عال من التوحد السياسي. والانفلاش المالي الياباني في العالم هو ايضا نتيجة قرار واع بالتعويض عن صغر مساحة اليابان، وعن كونها مجموعة من الجزر من خلال تحويل اليابان الى هرم مالي شاسع رأسه في طوكيو وقاعدته في العالم اجمع.

التحول العالمي الحاصل الآن هو اذن نتيجة قرارات واعية وحاسمة لدى عدد من النخب الحاكمة في اصقاع الارض. وكل واحدة من هذه النخب، ما كانت لتسير في الطريق التي اختارتها لو لم تدرس بصورة واقعية حاجات بلادها العاجلة والبعيدة، ولو لم تعمل الخيال بحثا عن السبل الآيلة لتلبية تلك الحاجات، أمنية كانت او سياسية، اقتصادية كانت او ترفيهية. ليست هذه التحولات اذن بالعناصر الطارئة الحاصلة بالصدفة. ولا هي من نوع التحولات الظرفية الحاصلة اليوم لتغيب في الغد القريب. ولا هي من نوع التحولات التي ستحصل في تلك البلدان دون ان يكون لها الاثر البالغ على احوالنا العربية، المعيشية والامنية والسياسية. فإما ان نختار تجاهلها، لأن في التجاهل نفيا، واحتماء نفسيا، واطمئنانا سهلاً بان الغد لن يكون الا كمثل الامس الذي عرفناه. واما ان ننظر اليها بتمعن، ونبحث عن اسبابها ونسعى للتاقلم معها.

وقد نفيق غدا لنرى ان النظام الدولي الذي تعودنا عليه منذ حوالي نصف قرن، قد تغير بصورة تمنعنا عمليا من التعرف عليه، فنشعر بالاحباط والغربة ازاء عالم جديد تكوّن دون علمنا، بل خلال نومنا الذهني والعقلي. والواقع ان المرء يشعر منذ الآن ان قدرا هائلا من الكتابات العربية، ومن المواقف السياسية، ومن المبادرات الرسمية تحصل وكانها في القرن الماضي، لا في الزمن الراهن، وعندما تقرأ صحيفتك العربية، يساورك انطباع بان جلّ القادة والمثقفين لم ياخذوا علما بعد بان النظام الدولي الراهن لم يعد ذاك الذي الفوه منذ عشر سنوات، وان موقفنا فيه لم يعد ذاك الذي عرفناه بالامس القريب، وبان ادواتنا للتاثير عليه والعمل من خلاله لم تعد نافعة، ولا فعّالة. وكان الغربة بين العالم المصنّع وعوالمنا اصبحت أعمق من اي وقت مضى، وكان بين ضفتي البحر المتوسط محيطات شاسعة، لا بعض الاميال البحرية المعدودة، وهذه بعض عناصر هذا التحول:

١- لقد تغيّر الوضع في الاتحاد السوفياتي بصورة عميقة، وسيتغير بوتيرة اسرع من الآن فصاعدا. فالحزب الذي تحكم بمصير هذ البلد، وبتوابعه ايضا، يسير تدريجا نحو الهامش السياسي. فهو لم يفقد السيطرة على بلدية موسكو فحسب، وانما على طريقة اختيار الزعامات، وبالتالي على السلطة السياسية. ويسير الاتحاد السوفياتي قدما باتجاه تخفيض نفقاته العسكرية والانخراط باقتصاد السوق والانتخابات الحرة. ويعني هذا لا تفككا في عرى الامبراطورية السوفياتية فحسب، بل ايضا توحد المانيا، وفي الاجل المنظور، اعادة تكوين الاتحاد نفسه على اسس جديدة وعلى مساحة جغرافية هي بالضرورة اصغر بكثير.

٢- واعترف الغرب ان الازمة الاقتصادية التي عرفها في العقد الماضي قد انتهت الآن وان اسعار النفط لم تكن هي سببها، بل تزايد النفقات التربوية والصحية، وهي مصدر ثروته. لذلك فهو يتهيأ لعصر تلك النفقات قدر الامكان، وللنهوض بثورة صناعية جديدة بينما عاد اليه الانتعاش الاقتصادي والرخاء.

٣- وتشهد الولايات المتحدة هبوطا مستمرا في زعامتها الدولية، وفي قدرتها على التاثير على ما هو حاصل في العالم. لذلك فهي تتجه نحو التخفيض من التزاماتها العسكرية في العالم وعلى الاهتمام بمحيطها المباشر. وهي تتجه ايضا للتركيز على علاقاتها بدول المحيط الهادئ على حساب علاقاتها التقليدية المتينة باوروبا وبالشرق الاوسط وتنمو الانتاجية الصناعية في اميركا بوتيرة الثلث عن معدل نموها في اليابان، وبوتيرة نصف نموها في اوروبا. وحصة الولايات المتحدة في السوق العالمية للآلات الصناعية هبطت في اقل من ربع قرن من ٢٥ في المئة الى ٥ في المئة فقط. ولم تجد الولايات المتحدة حتى الساعة الا الاستدانة الخارجية بمئات البلايين للتعويض عن الهبوط المستمر في وزنها الاقتصادي العالمي.

٤- ويبرز اليابان تدريجاً كقوة عالمية كبرى، تانف عن التاثير في الاوضاع العالمية الا بصورة غير مباشرة، وانما شديدة الفعالية، من خلال قوتها الاقتصادية والمالية. والتبادل التجاري بين اليابان والولايات المتحدة يعادل اليوم ثلثي التجارة العالمية كلها. وهو في الاجمال تبادل في اتجاه واحد: من اليابان للولايات المتحدة. فالشركات اليابانية تنفق على تطويرها الذاتي مرتين اكثر من مثيلاتها الاميركية، واليابان يتمتع سنويا بفائض تجاري هائل يفوق المئتي مليار دولار، بينما تتحول الولايات المتحدة لنوع من حقل زراعي واسع. فالمساحات الاميركية الزراعية المخصصة لتصدير المواد الغذائية لليابان تعادل اليوم مساحة اليابان كله. واليابان يؤثر ايضا على أمن الولايات المتحدة بالنظر الى ان حوالي ثلث العناصر المكونة للاسلحة الاميركية المتطورة مستوردة من اليابان. ويسيطر اليابان بصورة أقوى بكثير على اقتصاد معظم دول المحيط الهادئ.

٥- وتجري اوروبا قدما نحو التوحد الاقتصادي والسياسي على الرغم من الانفتاح الحاصل في اوروبا الشرقية ومن توحد المانيا. على اي حال، فان السوق الاوروبية المشتركة ستبقى حاجزا واقيا للديموقراطيات الغربية امام مطالب شرق اوروبا المتزايدة في مجال المساعدة المالية ونقل التكنولوجيا. ومع توحد المانيا، ستتزايد الضغوط لضم بعض الدول المرتبطة بالمانيا بالسوق المشتركة، لا سيما هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، كما ستتجه كلّ من لندن وباريس لمزيد من التعاون والتضامن في وجه القوة الالمانية الصاعدة. وستكون اوروبا الغربية قطبا دوليا شديد التاثير في الاوضاع السياسية والاقتصادية المحيطة بها لا سيما في الشرق الاوسط وافريقيا.

٦- ستتضاءل مع الوقت طموحات كل من الصين والهند لتكوين قوة عالمية ذات شان، لا سيما بسبب وزنهما السكاني الثقيل، ونقطة انطلاقهما المتواضعة. لكن اوضاع آسيا المعيشية ستكون افضل بكثير مما كانت عليه في السابق، وقد استطاعت هذه القارة عمليا محو المجاعة في كافة ارجائها من الصين حتى البحر المتوسط. بالمقارنة ستكون افريقيا عالة هائلة على نفسها وعلى النظام الدولي بسبب مزيج مرعب من الانفجار السكاني، والتخلف الاقتصادي، وانتشار المجاعة والامراض الجماعية، ودَين خارجي اصبح الآن يفوق كامل انتاجها الخام.

هذه هي بعض عناصر الصورة التي نراها الآن. وهي صورة غير كاملة طبعا، وهي صورة تنبؤية بمعنى انها قابلة في اي لحظة لتبدل عنصر من عناصرها بسبب تراجع في قرار هنا او نكسة غير متوقعة هناك. لكن الغالب فيها اصبح واضحا، وهو اعتراف عالمي جماعي باهمية الاعتبار الاقتصادي كمكوّن للقوة وللمناعة بالمقارنة مع اي اعتبار آخر، لا سيما الاعتبار السكاني او الدبني او التاريخي او حتى العسكري. والعنصر الآخر طبعا هو التهميش المتسارع في الايديولوجيات المعروفة ونشوء نظام قيم محوره حرية الانتقال وحرية التواصل ومحورية الانتاجية، والروح الفردية، على مستوى الفرد او على مستوى الجماعة الوطنية. ومن اهم العناصر السياسية لهذه الصورة هو التضاؤل المستمر في قدرة الدولتين العظميين على التاثير على النظام الدولي، بحيث قد نتساءل بعد سنتين او ثلاثة ان كانت هناك ما تزال «دول عظمى» قائمة بالفعل.

ونحن؟ يكفيني للاجابة على هذا السؤال الاخير ذكر ما يلي: في الكتاب الذي اصدره المستشار الخاص للرئيس الفرنسي (جاك أتالي) عن المستقبل الذي ينتظرنا، والصادر في مطلع هذه السنة، لم يات تعبير «الشرق الاوسط» او «المنطقة العربية» او «شرق المتوسط» او «العالم الاسلامي» مرة واحدة. نعم! ولا مرة واحدة. وكاننا غير موجودين البتة. وقد يعتقد البعض ان في الامر نسيانا او تناسيا او تجاهلا او حتى تحاملا علينا!

والواقع ان اكثر الناس تجاهلا او تحاملا لم يكن ليجرؤ على هذا السكوت المطلق عن وجودنا على الساحة الدولية، لو كان لنا بالفعل دور ما في هندسة تلك الساحة. وما كان أحد ليتجاسر ان ينسينا لو كنا ننبه العالم فعلا لوجودنا. ذاك الوجود لن يسمح به احد لا في سباتنا، ولا في نوباتنا العنفية المفاجئة. ذاك الوجود، لن يلحظه أحد، ان لم نعترف بان العالم يتغير بسرعة مذهلة، واننا نكتفي حتى الساعة بالنظر اليه، خائفين مرتبكين... ومتخاصمين.

» قد نفيق غدا لنرى ان النظام الدولي الذي تعودنا عليه منذ حوالي نصف قرن، قد تغير بصورة تمنعنا عمليا من التعرف عليه، والواقع ان المرء يشعر ان قدرا هائلا من الكتابات العربية، ومن المواقف السياسية، ومن المبادرات الرسمية تحصل وكأنها في القرن الماضي، «

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الأولى.